التدوين في الاسلام

من ادق المسائل معرفة أوائل الاشياء والمحدثات من الامور ، فقد رأينا الغربيين في عهدنا اختلفوا في اول من اخترع الكهرباء ووضع الخطوط الحديدية وعمد الى الطيران. وهذه من الاعمال الحديثة العهد فما بالك بامور اتت عليها قرون كمسألة التدوين في الاسلام . كان اول تدوين كتب القرآن في المصاحف في عهد الخليفة الاول وكلما كان يكثر عدد من يكتبون من المسلمين في الاقطار كان عدد من يدونون يزيد كثيراً وقد تبين مؤخراً ان ما نقلته في مجلة المقتطف (المجلد الثامن والعشرون سنة ١٩٠٣ — ١٣٢١ ص ٦٦٠) من ان اول من صنف عبدالملك بن جريج البصري المتوفى سنة ١٥٥ او ابو النصر سعيد بن ابي عروبة (١٥٦) او ربيع بن صبيح (١٦٠) او غيرهم من اهل القرن الثاني كان يراد به من افردوا المسائل بالتأليف والا فان التدوين وقيد الفوائد الادبية والدينية كان مما حدث في القرن الاول . ولو لم يكن هناك كتب مدونة ما كان خالد بن يزيد الاموي حكيم الامويين يحرص على نقل بعض العلوم من السريانية واليونانية الى العربية على ما اثبت ذلك الثقات المحققون .

ولقد ثبت على ماروى صاحب الفهرست ان عبيد بن شرية الجرهمي وفد على معاوية ابن ابي سفيان في الشام فسأله عن اخبار الاقدمين وملوك العرب والعجم فاجابه الى ما امر فامر معاوية ان يدون و ينسب الى عبيد ، ولعبيد عدة كتب ذكرت في الفهرست . وبقي عبيد حياً الى ايام عبد الملك بن مروان فثبت بذلك ان التدوين حدث في اوائل القرن الاول اي في عصر الصحابة الكرام على ما في (توجيه النظر) للعلامة الشيخ طاهر الجزائري ، فقد ذكر بعض الحفاظ ان زيد بن ثابت الف كتاباً في علم الفرائض وذكر البخاري ان عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث . وذكر مسلم في صحيحه كتاباً ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي . وقد ذكر المؤرخون انه وجد في خزانة الانبار عدة كتب بخطوط بعض الصحابة والتابعين بل وجد كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم من اهل مكة كتب قبل الاسلام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذا عرفت هذا فقد زال الشك الذي تطرق الى بعض ما دون من اخبار الجاهلية وشعرهم لانا رأينا القوم قد عنوا بالتدوين لاول القيام بالدعوة الاسلامية بقدر ماساعدهم عدد الكاتبين . وباثبات هذه القضية ، على ما تجلت لنا بآخرة ، يزول العجب الذي كان ادرك مثل الاستاذ منشئ المقتطف رحمه الله (م ٢٨ — ص ٦٦٣) من توقف العرب عن تدوين اخبارهم الى ما بعد الهجرة بسنين كثيرة قال مع ان مدائن مصر والشام والعراق وسائر بلاد فارس التي فتحوها في القرن الاول كانت حافلة بالكتب والمكاتب وان صناعة الكتابة كانت معروفة عندهم ، قال واعجب منه ان يكتبوا في المئة الثانية ما سمعه اجدادهم في المئة الاولى ولا يخطئوا ونحن لا نستطيع اليوم ان نروي خبراً سمعناه في العام الماضي او نصف حادثة شاهدناها منذ عامين اه .

كان هذا الرأي غالباً على بعض الباحثين ، ولكن الايام اثبتت نقيضه بما وقع لعبيد ابن شرية الجرهمي مع معاوية بن ابي سفيان . ومن غرائب الحوادث ان ما رواه الراوون عن هذا الراوية قد ظفر الباحثون بنصه مدوناً ، وقد نشره السيد كرينكو من علماء المشرقيات في انكلترا باسم اخبار عبيد بن شرية الجرهمي في اخبار اليمن واشعارها وانسابها وطبعه في حيدر آباد الدكن في الهند ومما جاء فيه وهو ما يؤيد رواية ابن النديم في الفهرست ان معاوية امر (ص ٣١٤) كتّابه ان يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية في كل مجلس سمر فيه مع معاوية . وقد ذكر عبيد في حضرة الخليفة اخبار عاد وثمود وجرهم وخروجهم من اليمن الى الحرم وغير ذلك وكلها مشفوعة باشعارهم ، وكان معاوية يطلب الى راويته المرة بعد المرة ان يسمعه ما قيل في كل حادثة من الاشعار ومما قاله له (ص ٣٥٢) : «وقد علمت ان الشعر ديوان العرب والدليل على احاديثها وافعالها والحاكم بينهم في الجاهلية وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول (ان من الشعر لحكماً) . » وقد كان معاوية معجباً جداً بما سمع من عبيد بن شرية ، وقال له مرة « خليق ياعبيد ان يكون هكذا فزادك الله علماً وفهماً وزادنا بك رغبة وعليك حرصاً فانا لا نحصي اياديك فزادك الله فضلاً الى فضل وهدى الى هدى ... »

ويقال في الجملة ان كتاب اخبار عبيد بن شرية الجرهمي في اخبار اليمن وهو من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اوائل ما دوّن في الاسلام كان منه حل الاشكال الذي استعصى على كثير من الباحثين وبه ثبت ان المسلمين دونوا في زمن اسبق بكثير مما دون المصنفون ولذلك حفظت السنة واخبار الجاهلية واشعارها فقد ذكر الجلال السيوطي في « تدريب الراوي » في فصل يستحب للمحدث العارف عقد مجلس لاملاء الحديث فانه اعلى مراتب الرواية — رواية ابن عدي والبيهقي في المدخل من طريقه انبأنا عبد الصمد بن عبد الله ومحمد بن بشر الدمشقيان قالا حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابو الخطاب معروف الخياط قال رأيت واثلة ابن الاسقع رضي الله تعالى عنه يملي على الناس الاحاديث وهم يكتبونها بين يديه (ويتخذ مستملياً محصلاً متيقظاً يبلغ عنه اكثر الجمع على عادة الحفاظ) في ذلك كما روي عن مالك وشعبة ووكيع وخلائق وقد روى ابو داود والنسائي من حديث رافع بن عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس بمنى حين ارتفع الضحى على بغلة شهباء وعليٌّ يعبر عنه ، وفي الصحيح عن ابن حمزة قال : كنت ازحم بين ابن عباس وبين الناس فان كثر الجمع بحيث لا يكفي مستمل اتخذ مستملين فاكثر الى آخر ما قال .

وواثلة بن الاسقع بن عبد العزّى من اهل الصفّة وسمع على مافي طبقات ابن سعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قبض رسول الله خرج الى الشام ومات سنة ثلاث (وقيل خمس) وثمانين وهو ابن ثمان وتسعين سنة وقيل مئة وخمس سنين وكان ينزل بيت المقدس ومات بها ويشهد المغازي فيمر بدمشق وحمص .

والمعروف ان الرسول عليه السلام نهى ان يكتب عنه اولاً غير القرآن ونهى عن كتابة الحديث لئلا يختلط بالقرآن . وفي فتاح السنة للاستاذ الخولي وهذا لا ينافي جواز كتابته اذا أمن اللبس وبذلك يحصل الجمع بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه (ائتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده) وقوله عام الفتح: (اكتبوا لابي شاه) واذنه لعبد الله بن عمر بتقييد العلم . وابو شاه كان من الصحابة قال: اكتبوا لي فقال النبي اكتبوا لابي شاه يريد خطبته ففيه دليل على كتابة العلم ونسخ النهي عن كتابة الحديث . وصح عن عبد الله بن عمر انه كان يكتب حديثه وكان مما كتبه صحيفة تسمى الصادقة وهي التي رواها حفيده عمرو بن شعيب عن ابيه عنه وهي من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اصح الاحاديث ، وكتب رسول الله كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو ابن حزم وغيره ،وعن هشام بن عروة عن ابيه انه احترقت كتبه يوم الحرّة في خلافة يزيد وكان يقول : « لو ان عندي كتبي باهلي ومالي » .

وبعد ان اوردنا هذه الروايات التي لا سبيل الى تزييفهـا لورودها من طريق مأمونة مضمونة وساعدنا على تأييدها طبع كتاب اخبار اليمن لعبيد بن شرية ثبت كل الثبوت ان المسلمين باكروا التدوين اكثر مما ظن الظانون وان دعوى كون اشعار الجاهلية مصنوعة قد ردّت بشهادات لا يسع الماحكين الا اعتقاد صحتها والله اعلم .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net